الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهـرام العربـى
التاريخ : ٢٠٠٠/٩/٣٠

إقبال ماضى تفتح ملف البنات .. والأحزان

نكسة فى بيت السادات!

لو كان فى مقدور كل منا اختيار أبويه لتغيرت أشياء كثيرة فى الحياة، ليس نحو الأفضل وإنما نحو العذاب والشقاء، ومن لا يصدق عليه أن يتخيل نفسه ابناً لرئيس جمهورية، وقبل أن يشطح بخياله بعيداً عليه أولاً أن يتحدث إلى السيدات الثلاث رقية وراوية وكاميليا أنور السادات، أو يستمع من والدتهن «إقبال ماضى» إلى القصة الحقيقية التى لا يعرفها أحد!

ثمة خيط رفيع يربط البنات الثلاث بوالدهن أنور السادات، حتى بعد رحيله، فى جزء منه نلمح عشقاً لا يدانيه عشق وإعجابا يصل إلى حد الافتتان، وفى مقطع آخر تبدو مساحات الافتقاد والغياب أكثر وضوحاً، ولكن المناطق التى تصل إلى حد السطوع هى تلك التى تنضح بالعذاب والمعاناة والشقاء بسبب «الأب» ليس لأنه انفصل عن «إقبال» وهن فى مرحلة الطفولة، أو لأنه انشغل عنهن خلال سنوات الكفاح والنضال ثم العمل السياسى، وإنما لأنهن سددن فاتورة صعوده نحو القمة، وبات عليهن أن يدفعن كل يوم ثمناً جديداً لأن والدهن أصبح رئيساً لمجلس الأمة، ثم نائباً لرئيس الجمهورية، ثم زعيماً لمصر والأمة العربية، ولكن المفارقة الحقيقية هى أن بناته الثلاث مازلن يدفعن الثمن حتى اليوم، هكذا ندلف مع «إقبال ماضى» إلى فصل جديد من قصة حياتها الدرامية جداً!

لم يكن سهلاً إقناع السيدة إقبال بالتقاط أنفاسها وهي تروي مشاهد ما بعد زفاف ابنتيها راوية وكاميليا الطفلتين، دون أن يأخذوا رأيها أو حتى يسمحوا لها بالحضور، وبات علينا أن نستمع إلى بوح أم لم تقدم لبناتها نصائح ليلة العمر، واكتفت بالدموع والنحيب بين الجدران الصامتة، صدقتها حين أقسمت أنها تكلمت ليلتها مع أثاث المنزل، وبثت أحزانها وهمومها إلى «لعب» كاميليا التى فارقتها باكية لأنهم لم يسمحوا لها باصطحابها إلى بيت الزوجية، وبدلاً من إطلاق «زغاريد» الأمومة، كان عليها أن تقضى الليلة حتى الصباح تدعو الله أن يكون رحيماً بالطفلتين فى ساعات الزواج الأولى.

تركتها ترحل مع ذاكرتها الجريحة: فى ساعة متأخرة من الليل، أخبرونى أن ابنتى «راوية» رفضت الذهاب إلى بيت زوجها قبل أن ترانى، فأسرعت للقائها فى منزل شقيقتها رقية باعتباره الأقرب إلى منزل والدها، وحين دخلت فى ثوب الزفاف أخذتها فى «حضنى» لم نتكلم ووجدنا الدموع أكثر قدرة على التعبير، بكيت وفوضت أمرى إلى الله، وبكت هى دون أن تشكو لى، وفى الصباح أصرت على أن أرافقها إلى بيتها فى الإسكندرية، فقضيت معها ثلاثة أيام من الصمت والدموع، وعدت مسرعة للاطمئنان على صغيرتى «كاميليا» وفى لحظة دخولى إلى منزلها فوجئت بها تهرول إلى صارخة «ماما خذينى معك، مش عايزة أعيش هنا» وعجزت عن فعل أى شيء، وكان الحل الوحيد أن أذهب إليها كل يوم للاطمئنان عليها، ورغم وجود شغالة ريفية فى منزلها، إلا أننى كنت أطهو لها الطعام وأرتب البيت بالكامل.

كانت «كاميليا» الصغيرة تدير البيت بعقل طفلة، تظل طوال اليوم بلا طعام، وحين يعود زوجها تفاجأ بأنه تناول الغداء عند أمه، فتواصل حتى المساء دون تناول أى شيء، كان شديد البخل عليها، إذا طلبت منه نقوداً يعطيها قرش «صاغ» لتشترى خبزاً وجبناً بينما يتناول طعامه فى منزل أسرته، وكانت «المسكينة» مازالت تائهة بين طفولتها التى سرقت منها وحياتها الزوجية التى لم «تهضمها» وترفض من داخلها الاعتراف بها، لدرجة أننى كنت أذهب إليها فأجدها خارج البيت، وعندما تعود وأسألها عن سبب خروجها فترد بخجل بأنها خرجت لشراء بعض «الطلبات»، وحين أفتح حقيبتها أكتشف أنها كانت تشترى الحلوى مثل الأطفال.

ليلة مريرة!

وتخرج السيدة «إقبال ماضى» بعض أوراق مذكرات «كاميليا» التى نشرتها فيما بعد فى الولايات المتحدة الأمريكية وتصف زواجها الغريب والمثير بقولها: كنت لا أعرف شيئاً على الإطلاق، وكنت أخرج مع راوية و «جيهان» لشراء الموبيليا دون إبداء رأى محدد، بل إننى لم أكن أعرف كيف أضع «الماكياج»، والأصعب من ذلك أن ابتعاد أمى عنى خلال هذه المرحلة، جعلنى أجهل ما سيدور فى ليلة الزفاف، لذا لم أجد أمامى سوى زوجة الجناينى «أم الهنا» التى وصفت لى الأمر بأسلوب ملأنى رعباً وذعراً. وفى يوم عقد القران شهد على الزواج الرئيس جمال عبدالناصر ونائبه عبدالحكيم عامر. وقد أقر الاثنان بأننى بلغت سن الزواج، وقضيت ليلة مريرة!!

وفى الصباح جاء أبى وهو يحمل ثلاثة «مظاريف» فى كل منها 100 جنيه، وأخبرنى أنها هدية منه هو وجمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، وانصرف تاركاً معى أكبر مبلغ أمسكته فى يدى حتى ذلك اليوم!

وتعود الأم إلى الفصل القاتم فى زواج ابنتها «كاميليا» بقولها: رغم أن زوجها كان ينتمى إلى عائلة محترمة، حيث كان والده الأميرالاى (عميد) جميل عطية عبدالبارى، وعمه الراحل عبدالله عبدالبارى، وجده أحد الباشوات الكبار، إلا أنه فشل فى التعامل مع كاميليا، ربما لأن ظروف الزواج نفسها لم تكن طبيعية، لذا فسرعان ما دبت الخلافات والمشاكل بينهما، وفى نفس الوقت كانت الخلافات بين راوية وزوجها قد اشتدت ليس لعيب ما فى شخصية الزوج أو الزوجة .. ولكن ربما يرجع السبب أيضاً إلى الطريقة التقليدية التى تم بها الزواج، فلم يكن هناك فرصة ليتعرف كل منهما على طباع الآخر خاصة أن ابنتى راوية تبدو شديدة الحساسية تجاه أى مشكلة وهو ما تسبب فى تدهور حالتها النفسية.

فى هذه المرحلة كان الرئيس السادات غارقاً فى أوراقه ومسئولياته فى مجلس الأمة وكانت مصر تمر بظروف حالكة السواد عقب نكسة 67، ولم تمنع هذه الظروف تسرب إحساس إلى أنور السادات بأن هناك نكسة أخرى فى بيته بسبب ما يحدث لبناته من أزمات ولكنه ظل يرفض الاعتراف بذلك لفترة طويلة إلى أن شعر الزوج بأن الحل

الوحيد هو أبغض الحلال - الطلاق - فذهب إلى حماه في مكتبه بمجلس الأمة وتولى عدنان رفعت مهمة إحضار المأذون وشاهد آخر.

، وتم الطلاق في هدوء، وكانت «راوية» قد أنجبت من زوجها محمد وسامح اللذين يعملان الآن في وظائف بنكية مرموقة، ويعتمدان على كفاحهما دون الاستناد إلى اسم جدهما السادات.

مأساة كاميليا

هكذا، حدث الطلاق الأول في أسرة السادات، والغريب أن صحة «راوية» وحالتها النفسية تحسنت كثيراً بعد الانفصال بعكس ما يحدث للمرأة المطلقة، وبدا على «أنور» أن الجرح كان أكبر من الاحتمال، مما أدى إلى تجاهله للمشاكل التي تصاعدت في بيت «كاميليا» لأنه كان حريصاً على استمرار زواجها حتى لا تصبح في بيته «مطلقتان»، ولكن زمام الخلافات كان قد أفلت بالفعل، وثار السادات بشدة ووبخ ابنته عندما علم أنها لجأت إلى عمها «عصمت» لحل مشاكلها مع زوجها «عزالدين» لا سيما أن الزوج كان يتعدى عليها، مما دفع «عصمت» إلى تهديده برد فعل عنيف إذا عاد إلى ذلك السلوك.

كانت «كاميليا» تشكو بخله الشديد، واستيلاءه على «مصوغاتها» كما كان يسبها بألفاظ تعف الأذن عن سماعها، وعندما كنت أتدخل لحل خلافاتهما، أو أطلب منه أن يمنحها مالاً لتدبير البيت، كان يرد بأنها مازالت طفلة، وكان يتعدى عليها بالضرب، فتغادر البيت لفترة، ثم يأتي مقدماً الاعتذارات والوعود بعدم تكرار ذلك مع «ابنة نائب رئيس الجمهورية - وقتها - » ولكنه كان يعود إلى أفعاله بطريقة أكثر وحشية، وظل الأمر مشتعلاً والسادات يقاوم فكرة «الطلاق» إلى أن أصيبت «كاميليا» بانهيار عصبي حاد، نقلت على إثره إلى مستشفى المعادي العسكري، وانتقل السادات برفقة بعض معاونيه إلى المستشفى، وعندما أخبره الأطباء بأن حالتها سيئة للغاية، وأنهم وضعوها في غرفة مغلقة لمدة أسبوعين، أدرك حجم المأساة التي عاشتها ابنته، فسعى إلى إتمام الطلاق بنفسه، وكانت «كاميليا» قد أنجبت طفلة وحيدة أسمتها «إقبال» من فرط حبها لي.

السادات نائباً

وتلتقط (إقبال ماضى) أنفاسها وكأنها تخلصت من حمل ثقيل كان يجثم على صدرها، وبدا واضحاً أنها لم تكن كأى «أم» فى هذه المرحلة، فلم تحزن لطلاق البنتين، ولم تندب حظيهما، وربما كانت كلمات التهنئة هى الأقرب إلى شفتيها، والدليل ما ترويه بلسانها: لن يصدق أحد أن أيامى وأيام بنتيّ بعد انفصالهما كانت سعيدة، ومستقرة قياساً بالأيام السوداء التى عشناها جميعاً فى أثناء الزواج، وفى غمرة العودة إلى هذه الأيام الحزينة، نسيت أن أروى لكم تفاصيل اللحظة التى عشتها مرة واحدة، عندما أصبح أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية، فلم تكن مفاجأة لى أن يحتل هذا الموقع، فمنذ سنوات طويلة كنت أكثر من يعرف أنه الرجل الثانى فى مصر بعد عبدالناصر سواء قبل الثورة أم بعدها، بل كان لدى يقين تام بأنه إذا حدث لعبدالناصر أى مكروه، سيكون أنور هو الخيار الوحيد والمناسب.

مازالت كلماته تتردد فى أذنى وقلبى، حين قابلته بعد توليه منصب نائب الرئيس، يومها لم يمهلنى حتى أنطق بكلمات التهنئة، حيث قال بصدق وتلقائية «يا إقبال أنت تحملتى معى الكثير، ولك الفضل فى كل ذلك»، بعدها قام بتجديد «عفش» منزلى بالكامل، فأشترى لى ثلاث غرف جديدة وبعض الأجهزة الكهربائية، ومنحنى مبلغاً من المكافأة التى حصل عليها، ثم رفع المبلغ الذى كان يخصصه لى كل شهر.

فى تلك الفترة، أصيب «أنور» بذبحة صدرية حادة بسبب خلاف عنيف لم أعرف حقيقته حتى الآن، واختلف حوله المقربون منه، البعض قال وقتها إنه خلاف فى الحكم والسياسة، بينما أكد آخرون بأنه خلاف مع زوجته «جيهان» وبعد أن تحسنت حالته، انتقل إلى منزل «ميت أبوالكوم» وقضى هناك ثلاثة أشهر (بمفرده) زاره خلالها الرئيس عبدالناصر مرتين، وكان الدكتور محمود جامع هو الذى يتولى رعايته وعلاجه، ولازمه طوال هذه الفترة.

وكأى مريض، خشى السادات أن ينقضى أجله، وكان أبناؤه من «جيهان» مازالوا صغاراً، فأراد تأمين مستقبل «ذريته» بالكامل، فأبلغنى برغبته فى بناء بيت لى فى «ميت أبوالكوم» ولكننى رفضت بشدة وقلت له: أنا لن أعيش إلا فى القاهرة، ولست فى حاجة إلى بيوت فى أبوالكوم، ولكنه أصر على تأمين بناته، فأشترى لكل واحدة منهن شقة فى

القاهرة، وكانت شقتا راوية وكاميليا تقعان فى شارع «نهرو» أمام الميرلاند، وفى لحظات الضيق المالى - بعد وفاة والدها - باعت راوية شقتها وأنفقت جزءاً من ثمنها فى شراء سيارتين لولديها، وتبقى مبلغ 35 ألف جنيه، وضعته فى شركة توظيف الأموال (الريان) وفقدته بالكامل.

أما «كاميليا» فقد باعت شقتها، وأنفقتها على تعليم ابنتها «إقبال» فى الولايات المتحدة الأمريكية بينما كانت لـ «رقية» حكاية حزينة أخرى، حيث كانت قد حصلت على شقتها فى الزمالك، وانتقلت هى وزوجها د. أمين عفيفى للإقامة فيها، ولكن زوجها نازعها على الشقة، وحصل على حكم محكمة بطردها منها!

علقة فى الشارع

هكذا، عصفت الأمواج والأنواء بالبنات الثلاث، زيجات فاشلة، وحياة تعيسة رغم نفوذ الأب ونجوميته السياسية، وربما كانت هذه التعاسة والمعاناة هى «وثيقة» نزاهة أنور السادات الذى لم يستخدم سلطاته ونفوذه يوماً فى إرهاب أو قمع أزواج بناته رغم تصرفاتهم، والدليل سوف ترويه السيدة «إقبال» بعد قليل.

ولكن، إذا كانت الحال كذلك، فهل كان «السادات» نفسه جزءاً من تعاسة بناته؟! السؤال يبدو ظالماً إذا طرحناه دون محاولة فك «شفرة» العلاقة بين الرجل وبناته، وإقبال أيضاً، فالثابت والمؤكد أنه كان يحبهن إلى حد العشق الأبوى، لذا نشأت بينه وبينهن علاقة احتياج متبادل، وفى المقابل كانت «إقبال» تمثل له الماضى «الأصيل» وتذكره بمرحلة الكفاح والنضال ضد الإنجليز، وتفسر «إقبال» هذه العلاقة بقولها: كان السادات شديد الخوف والقلق علينا، وحين تم طلاق البنات كان يبذل كل جهده لتعويضهن عن سنوات العذاب والمعاناة، كما كان يثق فيهن إلى أقصى حد، حتى أنه كان يعتمد عليهن - حين تولى رئاسة الجمهورية - فى قياس الرأى العام فى الشارع المصرى تجاه سياساته وقراراته.

كان السادات يطلب من بناته التجول فى الشوارع بالتاكسى دون أن يكشفن عن هويتهن والتحدث مع الناس حول قراراته المهمة، وفى إحدى المرات خرجت ابنته الكبرى «رقية» بصحبة البواب، وركبا أحد التاكسيات، وفى الطريق وجدت نفسها أمام أحد المساجد الفخيمة فسألت أحد الركاب عن اسم المسجد، فرد عليها ناقماً «ده المسجد اللى هيدفن فيه أنور السادات إن شاء الله» فالتزمت «رقية» الصمت،

بينما انتفض البواب وأشبع الرجل ضرباً وهو يصرخ في وجهه قائلاً «هذه بنت أنور السادات» وتدخلت «رقية» لإنقاذ الرجل من يد البواب، وعندما أخبرت والدها بالواقعة طلب من مكتبه حل مشكلة المواطن، وضمان عدم التعرض له إطلاقاً.

ضريبة الرئاسة

ومثلما كان المواطن المجهول يدفع ثمن صراحته واندفاعه لولا تدخل الرئيس، دفعت بنات السادات ثمن زعامته ونجاحه في الوصول إلى القمة، وأصبح «السيد الرئيس» سبباً مباشراً - دون قصد أو تعمد - في تعاستهن، وتلخص السيدة «إقبال» المرحلة الجديدة بقولها بخلاف كل أبناء الرؤساء في الدنيا كلها، كان على بناتي أن يسددن الفاتورة كاملة، وبينما اعتقدنا أن مرحلة الزيجات الفاشلة قد انتهت، كان القدر يخفي لنا مرحلة أكثر معاناة، فقد أصبح طابور العرسان على الأبواب، ففي عام 1972تودد رجل أعمال سوري يدعى نادر بايزيد إلى كاميليا، ولأنه كان وسيماً وأنيقاً فقد وقعت في حبه، فتقدم إلى والدها ولم يعارض السادات لا سيما بعد أن عرف أنها تريده، ولكن بمجرد أن تم الزواج، بدأ في تحقيق أهدافه الخفية من وراء الزواج، حيث قام بتأسيس شركة مقاولات في القاهرة، واشترى أراضي وعقارات كثيرة وجمع مبالغ كبيرة من الناس، ثم بدأ يماطل في السداد وتسليم الشقق.

وعندما علم الرئيس بتصرفاته طلب من أجهزته إعداد تقرير كامل حول أنشطته، وبمجرد أن قرأ التقرير طلب «كاميليا» وأخبرها بتصرفات زوجها، وفرض عليها قبول الطلاق، ولكن الزوج تعنت ورفض الطلاق، واشترط أن ترد له كاميليا قطعة أرض كان قد كتبها باسمها، فقبلت وتم الانفصال وقام الزوج برد الحقوق المالية للمواطنين، وسافر إلى سوريا بعد منعه من دخول مصر

نفس المأساة تكررت مع «راوية» فقد ارتبطت في عام 1974برجل أعمال سكندري، ولم يكن رجل أعمال معروفا، لذا تقدم للزواج منها عن طريق صديق مشترك بينه وبين شقيقتها، و«عمل لنا من البحر طحينة» وعقد قرانه في ميت أبوالكوم، وأقيمت لهما حفلة شاركت فيها شريفة فاضل وعمار الشريعي، ثم سافر لقضاء شهر العسل في روما، وبعد العودة اكتشفنا أنه لا يمتلك شقة في القاهرة، وأنه يعيش في شقة مفروشة بـ «جاردن سيتي».

وعاشت «راوية» دون أن تدرى شيئاً عن «ألاعيبه» حيث بدأ فى استغلال اسم السادات فى «السر» ودون أن يشعر به أحد، وكانت البداية بطباعة «كروت» باسم راوية، ثم يكتب اسمه على نفس الكارت، ويدخل مناقصات ومزايدات فى قطاعات مهمة، ويحصل على مشروعات كبيرة، ولم يكتف بذلك وإنما امتد نشاطه واستغلاله لاسم السادات إلى الخارج، ففى إحدى الرحلات إلى «هولندا» فوجئت «راوية» به يعد حفل استقبال ضخما على شرف «راوية السادات»، وعلمت أنه وجه الدعوة إلى بعض الشخصيات العالمية، وحينما سألته عن الأمر، أدعى أنهما مجرد مدعوين، وأن هذه الشخصيات ترغب فى التعرف على ابنة الرئيس، وقبل الحفل تلقت الزوجة اتصالاً هاتفياً من السفير المصرى فى امستردام سألها خلاله: هل لدى الرئيس السادات علم بأن هناك حفلا سيقام على شرفك؟! فأجابت بأنها نفسها لا تعرف أن هذا الحفل مقام على شرفها، وعندما أخبرها السفير بالحقيقة، رفضت الحضور، وأرسل السفير إليها مندوباً من السفارة لمرافقتها فى جولة ونزهة فى امستردام.

الطلاق مرة أخرى

بعد الليلة المتوترة، أصرت «راوية» على العودة إلى مصر وطلبت من السفير أن يكتب لوالدها بالأمر، وفى المقابل شعر زوجها بأن أمره قد انكشف، فعاد إلى القاهرة، ولم يذهب إلى بيت الزوجية طوال ثلاثة أشهر، وخلال تلك الفترة توافرت أمام السادات معلومات حول تصرفات زوج ابنته، لدرجة أن الأجهزة المعنية قدمت له (10) كروت مختلفة باسم ابنته، استغلها الزوج فى عمليات «البيزنس» فلم يجد والدها حلاً سوى الطلاق، وتولى عبده الدمرداش - من قيادة الحرس الجمهورى - مهمة إحضار الزوج والمأذون والشهود إلى منزل الرئيس بالجيزة، وانتهى الأمر فى دقائق معدودة

تستطرد الأم بلهجة مفعمة بالحزن: عاشت راوية ثلاث سنوات متنقلة بين عدة شركات في وظائف مختلفة، ولكن «العرسان» لم يتوقفوا عن طرق أبواب بنات «الرئيس» فارتبطت ابنتي للمرة الثالثة بدبلوماسي، وبعد أن عقد قرانه عليها، وصلت تقارير للسادات تؤكد أنه كان يقوم بتهريب التحف النادرة من الخارج إلى مصر والعكس، فتم الطلاق بعد أربعة أشهر من الزواج

هنا، تقول «إقبال ماضي» كان لابد من إغلاق ملف الزواج تماماً، فقد قررت البنات عدم فتح أبوابهن إطلاقاً لأي رجل فما حدث كان كافياً، سنوات العذاب والمعاناة كانت قد سكنت قلوبهن، وبات صعباً على أي منهن أن تثق مرة أخرى في الرجال، ليس لفسادهم جميعاً، وإنما لأن بنات الرئيس يصعب أن يعشن حياة طبيعية مثل كل البنات، بل يصعب أن يأتي الرجل حاملاً رغبته في تكوين بيت هادئ مستقر وبسيط، فالكل كان يأتي محملاً بحلم الثراء، والصعود على أكتاف «السيد الرئيس»! ■

الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

■ السادات مع بناته من زوجته الأولى

■ والسادات يوقع عقد زواج حسن ضاحى على كريمته راوية

■ والده يقرأ الفاتحة مع عزالدين عطية الزوج الأول لكاميليا

■ من اليمين أمينة زوجة والده وإحدى قريباتها . وجيهان وهى تنظر إلى الخلف . السادات وشقيقاته هدى السادات وزوجها الضابط محرم هلال وعزة وزينب وزوجها محمود ابوزيد

■ كاميليا وزوجها السورى